فى العصر الأيوبى

الروح الفكاهية

ظلت للمصريين فى هذا العصر روحهم الفكاهية على الرغم مما كان فيه من حروب صليبية، فهى النبع الذى لا يجف فى أنفسهم، مهما شغلوا بحروب وأحداث. وقد ذهبوا يوغلون فى لعبة التورية الخفيفة، ومن أشهر من عنوا بها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين، وكاتبه ابن سناء الملك، غير أن أكثر ما صنعاه يغلب عليه الجانب التعليمى، ولذلك كانت توريا تهما لا تثير فينا الضحك إلا نادرا. ولا شك فى أن البهاء زهيرا الذى جاء من بعدهما كان أحلى منهما روحا وأخف دما، وقد كان يكثر فى شعره من التظرف والمزاح والدعابة، ولعل ذلك أحد الأسباب فى كثرة الأساليب الدارجة عنده على نحو ما نرى فى قوله:

أرِحنى منك حتى لا أرى منظرك الوَعْرَا
فقد صرت أرى بُعْدَ ك عنى الراحةَ الكبرى
فما تنفع فى الدنيا ولا تنفع فى الأخرى

فكلمة « بعدك راحة » و « لا تنفع » من الكلمات التى تدور على ألسنة المصريين. ومن مقطوعاته الفكهة هذا المزاح مع صديق له على بغلته:

لك يا صديقى بغلةٌ ليست تساوى خَرْدلَهْ
تمشى فتحسبها العيـ ـنُ على الطريق مشكِّله
وتخال مدبرةً إذا ما أقبلتْ مستعجلهْ
مقدارُ خطوتها الطويـ ـلة - حين تسرع - أنمله
تهتز وهْىَ مكانها فكأنما هى زلزله

فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية، بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة هى:

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة، بالمعنى الدقيق للفكاهة، فى تاريخ مصر الإسلامية. ألفه الأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين. كان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى

القاهرة فى عهد الفاطميين فقرَّبوهم وفوَّضوا إليهم كثيرا من شئونهم وأعمالهم. فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قِبَل نور الدين صاحب الشام، وأصبح إليهما أمر مصر، وجدنا هذه الأسرة تدخل فى الإسلام، ورعاها صلاح الدين، فجعل رئيسها الخطير بن مماتى قيِّما على ديوان الجيش، فلما توفى خلفه ابنه الأسعد فى عمله، ثم أُسندت إليه الشئون المالية، فأحسن تدبيرها وتصريفها.

واشتهر الأسعد بن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة، وقد تعلق بشخصية عاصرته، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه. وكان فيه على ما يظهر شىء من الشدة والقسوة. وكان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين. وقد وضع عليه ابن مماتى الحكايات المضحكة التى تصور حمقه فى أحكامه وغفلته وبلاهته، ونسَّق هذه الحكايات فى كتاب سماه «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» ونراه يستهله بقوله: «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما

ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

ويزعم بعض المستشرقين، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى بنشر الكتاب وبحثه إلى أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض السخرية فقط من ظلم قراقوش بل ألفه أيضا سخطا على دولته الأيوبية وهو زعم مخطئ إذ كان ابن مماتى من رجال الدولة وموظفيها الكبار، مما يؤكد أنه لم يرد إعلان السخط على الدولة الأيوبية، وكل ما يمكن أن يقال أنه ربما أراد أن يسخر ممن تستخدمهم تلك الدولة من الأجانب أحيانا فى حكم مصر، وكان قراقوش تركيا. وفى رأينا أنه ظلمه ظلما بينا بوضعه عليه هذه النوادر الساخرة من حكمه بدليل ثقة صلاح الدين الأيوبى فى نيابته عنه بمصر واعتماده عليه فى تدبير شئونها، ولولا وثوقه بكفايته ما فوَّضها إليه. وفيما يلى بعض تلك النوادر المفتراة على قراقوش.

من نوادر الكتاب

أول ما نلقاة فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعيا أنها ليست السيدة، بل هى الجارية، والجارية هى السيدة، وهمَّ بحبسها

لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها.

وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب: فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا «أجرودا» كان ما يزال يعبث بلحيتيهما، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما المتهم. فلم يجد له لحية. حينئذ قلب الوضع فى القضية، إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح فى غلمانه: «ودوهما (خذوهما) إلى السجن، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل». وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور!

ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوما بأحد غلمانه، وقد قتل نفسا محرمة بغير حق، فقال: «اشنقوه» فقيل له: أنه حدَّادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس، فإن شنقته انقطعت منه، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك، فنظر أمام بابه، فرأى رجلا قفّاصا، فقال: اشنقوا القفاص وسيِّبوا (اتركوا) الحداد. وبذلك أنقذ الموقف فى ظنه!.

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هوالمنطق الذى ألفناه، فبن قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا، حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ما يذهل ويحير، وفيه ظلم صارخ بل ظلم مضحك. وهل يريد ابن مماتى غير ذلك؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته فى الناس

وما تتضمن من غباء ونزق وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما. وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص فقط، وإنما أيضا للتباين بين المقدمات والنتائج، فسيدة تدخل عنده تشكو له خادمتها، فإذا هما تخرجان فى حالة شاذة، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة، والخادمة أصبحت سيدة. وكذلك الشأن فى الرجل «الأجرود» فقد دخل بدون لحية، وخرج ولا بد له من لحية، ألا أنها نتفت، أو قل: دخل جانيا وخرج مجنيا عليه. وفى النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ من جنايته، والبرىء يؤخذ بفعلته. وكأننا لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء، وإنما نحن بإزاء ملعب هزلى، نرى عليه رجلا يأخذ سمت الحاكمين، ويصطنع شاراتهم، ولكنه لا يكاد يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم: المدعين والمتهمين، حتى يشوّش عليه الأمر، فإذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة، وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع فى قضاياه قلبا يزرى بالعقول، لأنه يلغيها إلغاء، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم، ويردنا إلى فكر مضطرب معوج لا نظام له، فكله اضطراب وفوضى.

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش، فإذا ابن مماتى يقص أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيىء له حساب القمح والشعير والفول والحمص، وصدع القاضى بأمره، إلا أنه وضع الحساب كله فى صحيفة واحدة، فاختلط الأمر على قراقوش، وظن أن القاضى

خلط هذه الأصناف بعضها ببعض، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى صحيفة واحدة، وأمر بحبسه. وتنبه القاضى للمسألة، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى صحيفة على حدة. حينئذ سُرَّ قراقوش، وعفا عنه قائلا: «لقد تعبت يافقيه! نَقَّيت هذا من هذا وذا من ذا، زفّوه فى المدينة». أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش، إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بصحيفة أنه نَحَّى الأصناف بعضها عن بعض، بعد أن خلطها بعضها ببعض.

وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما، فنظر قراقوش، فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القاهرة عشرين عشرين، فقال يا غلمان! نادوا فى المدينة: «قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملى (يحمل ماء) أحد من البحر إلا جملا واحدا» ففعلوا ذلك، فأوفى النيل، فقال: ياهؤلاء كيف رأيتم رأيى عليكم؟ ما هو إلا رأى مبارك. وكأن قراقوش ضن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل، فتمنع الفيضان! وأيضا فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة، ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له، ولكنه قراقوش مُثْلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء.

وعلى هذه الشاكلة شهَّر ابن مماتى بقراقوش وحكوماته فى

الناس ، وهو لم يبلغ ذلك ، ولم يصنعه ، بالشعر ، وكان شاعرا ممتازا ، وإنما بلغه وصنعه بهذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التى كانت تدور بين قراقوش ومن حكم بينهم من الناس ، حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة . وهى فعلا قد شاعت ، فإن المصريين فى مدنهم وريفهم كلما نزل بهم حاكم ظالم قالو «دا ولا حكم قراقوش» . والمعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من حكوماته أو أحكامه .

ووفق ابن مماتى توفيقا منقطع النظير حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الساخر ، وهو عرض ربما أراد به - كما أسلفنا - أن يشوه من تصطنعهم الدولة الأيوبية من الاجانب فى أعمالها وشئونها ، ونراه يستمر فيروى تلك النادرة ، وهى أن شيخا وصبيا احتكما إلى قراقوش فى دار ، كل منهما يدعى أنها له ، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبى : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه أو إلى صوابه ، فتراءى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير . حينئذ قال للصبى : ياصبى ادفع له داره ، وإذا صرت فى عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه

الصور الهزلية التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمرا فيه لهو وتسلية. والغريب أن ابن مماتى حين تصدى لقراقوش فى هذه النوادر لم يترك منه جانبا إلا شوهه ومسخه حتى مَعْرفته الدينية، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش: «يامقرىء! لقد قرأت قراءة طيبة». فقد ظنه يتلو قرآنا، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر. وليس ذلك كل مايريده ابن مماتى به، فإنه يريد شيئا وراء ذلك. يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحا مما يقال فيه ذما.

وواضح من كل ما سبق أن ابن مماتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية. وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى، إذ نسبت إليها كثيرا من القصص المضحكة، بل إننا نجد كتبا جديدة تروى نوادر قراقوش، فقد ألف السيوطى فى أواخر عصر المماليك كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى، ولكنه يختلف عنه فى كثير من نوادره، مما يدل على أنه من صنعه، أو على الاقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى، وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية، لكل حاكم أجنبى لمصر، فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نوادره، ويضيفون إليها نوادر جديدة.

من النوادر فى رواية السيوطى

ومن النوادر التى ذكرها السيوطى أن عملة (نقودا) سُرقت فى زمنه، فقال لأصحاب العملة: «الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له نعم، فقال: اذهبوا ائتونى به، ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه، فقال: مدوه (يريد أن يضربوه) فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل، فقال: افعلوا ما آمركم به، فمدوه وضربوه. ونزل قراقوش، ووضع أذنه بجانبه، وجعل يوشوشه، فلما فرغ قال: اجمعوا لى باقى أهل الحارة. فلما حضروا قال لهم: الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة، وكان سارق العملة واقفا بجملة الناس، فتوهم، ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به، وقرره بالضرب، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها». وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره.

ويحكى السيوطى أيضا أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما، فزاد عليه الدين، وما مات والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده حيًّا، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه ووضعوه فى النعش، وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين يصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه (فى المسجد) اتفق أن قراقوش كان مارا، فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءنى

الفرج ، فجلس فى التابوت ، وقال : يامولانا السلطان ! خلِّص حقى لى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب علىَّ يامولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا : نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت ، وقال : نا جُننت ! أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم . فحملوه ودفنوه حَيًّا ، فى ذمة قراقوش » .

ولاشك فى أن هذا نموذج هزلى ويحكى السيوطى أيضا من نوادره أنه طار له بازى ، فقال « اقفلوا باب النصر (زويلة) فإن البازى لا يجد له موضعا يطير منه » .

وكأن الغفلة تشخصت أو قل تجسمت فأصبحت هذا الشكل الإنسانى لهذا الحاكم المسمى قراقوش . وهو شكل إنسان فى الظاهر ، أما فى الباطن فهو شىء معوج ، وكأنه لعبة تحرك بأسلاك الغباء والغفلة واللامنطق ، فليس له منطق معقول ولا مفهوم .

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية مثالية لكل حاكم أجنبى فى مصر ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التى تُعْزَى إليه . وهناك كتاب ألف عنه فى عصر متأخر ، وهو

يذهب مذهب الكتابين السابقين ، ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » .

والحق أن ابن مماتى نجح نجاحا كبيرا فى تصوير شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التركية التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش وإن كان هناك من يذهب إلى أنها مكونة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و « جوز » أى عين ، فيكون معناها « العين السوداء » يقولون لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة على الناس كانوا من الغجر الجوالين . وقد دخلت الكلمة إلى مصر ثانية باسم « أراجوز » . ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على مدى توفيق ابن مماتى فى التشنيع على قراقوش والتندر عليه .